مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

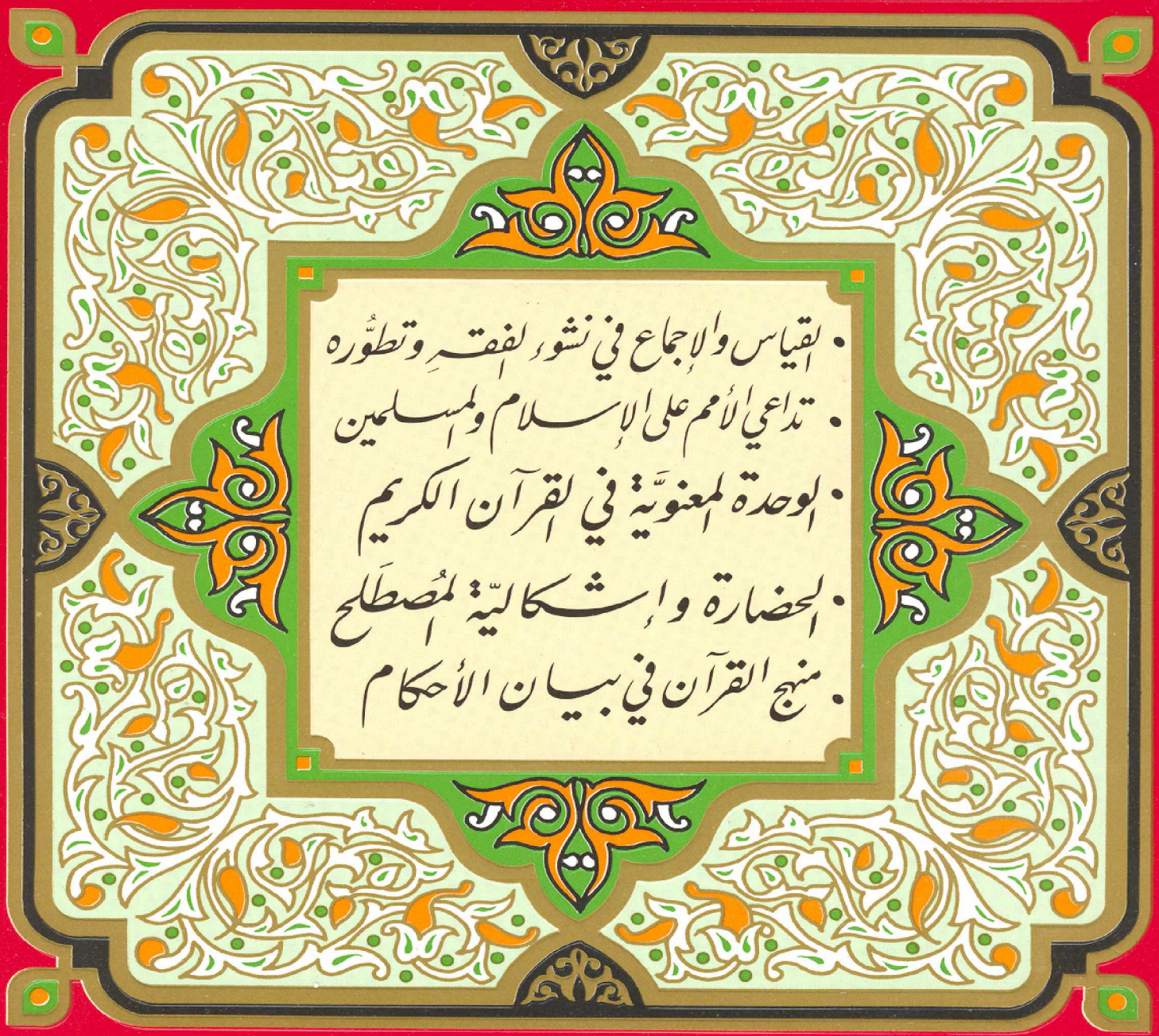

الوحدة المعنوية في القرآن الكريم

د. سعيد سالم قاري
جامعة الجبل الغربي

من الوجوه البيانية لإعجاز القرآن الكريم التناسب بين الآيات القرآنية، وكذلك السور؛ بما يحقق الترابط المعنوي بين العبارات، والقضايا، التي تضمنها الخطاب القرآني، وقد أدرك كثير من المفسرين والبلغاء، بل بعض الفقهاء هذه الخصيصة العظيمة، التي صارت من ضرورات العمل الأدبي في هذا العصر، وغفل عنها شعراؤنا وأدباؤنا الأقدمون، يقول ابن العربي ـ وهو من الفقهاء المفسرين ـ في تأصيل القرآن لهذه الظاهرة الأدبية: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى يكون كالكلمة الواحدة، منسقة المعاني، منتظمة المباني»[1].

(1) الإتقان للسيوطي ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ د. ت: ـ 2/ 138.

وكان أول من نقل عنه محاولات في إبراز هذا المعنى هو أبو بكر النيسابوري محمد بن عبدوس ت338هـ، حيث ألقى باللائمة على علماء بغداد في إهمالهم علم المناسبات[2].

وقد اعتنى أوائل المفسرين بهذا المقصد، ومنهم أحمد بن عمار المهدوي ت440هـ، حيث تعرض له في تفسير كثير من الآيات، كما فعل عند بيان قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125]، فأظهر مناسبتها لما بعدها في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: 126]، فقال: «معناه إنما اتخذ إبراهيم خليلاً؛ لحسن طاعته، لا لحاجته إليه؛ لأن له ما في السمٰوات وما في الأرض»[3].

وفي الربط بين ما جاء في قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، وضلالهم في التيه، وبين قتل ابن آدم لأخيه، يقول المهدوي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ....﴾ [المائدة: 27]، : «وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التنبيه من الله عز وجل على أن ظلم اليهود، ونقضهم ما نقضوا من العهود، كظلم أحد بني آدم لأخيه، وفي ذلك تبكيت لمن خالف الإسلام، وتسلية للنبي ﷺ[4].

ويؤيد ابن عطية هذه الظاهرة البلاغية القرآنية، فيقول في عقد الصلة المعنوية بين قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ..﴾ [البقرة: 79]، وبين الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ...﴾ [البقرة: 78]، فيقول: «تناسق هذه الآية على التي قبلها يعطي أن هذا الكَتْبَ [الكتابة] والتبديل إنما هو لاتباع الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قرىء لهم»[5].

---

(2) م. ن: 2/ 138.

(3) المهدوي وجهوده في التفسير ـ رسالة دكتوراة دولة مرقونة ـ جامعة الزيتونة تحت رقم 25 ص118.

(4) م. ن: ص310.

(5) المحرر الوجيز لابن عطية ـ المغرب ـ المحمدية ط ثانية: (1403/ 1982) 1/ 273.

وكان لفخر الدين الرازي ت606هـ في تفسيره مفاتيح الغيب، اهتمام كبير بهذا الجانب، وقد قال في أهميته: «إن أكثر لطائف القرآن مودعة فيه»[6]، ومما ورد في تفسيره مبرزاً الصلة بين معاني الآيات، قوله في الربط بين قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا ....﴾ [الحج: 73]، وبين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75]، : «اعلم أنه سبحانه لما قدم ما يتعلق بالإلهيات، ذكر هاهنا ما يتعلق بالنبوات»[7].

وقال الزركشي بدر الدين ت794هـ: «وقد قل اعتناء المفسرين بهذا العلم، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي»[8].

وأول من أفرد هذا الفن بالتصنيف أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي ت708هـ، حيث ألف كتاب «البرهان في ترتيب سورة القرآن»، وهو كتاب يختص بإدراك العلاقات المعنوية بين السور القرآنية[9]، وألف فيه السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ) كتاب «أسرار التنزيل»، وكتاب «تناسق الدرر في تناسب السور»، وكتاب «مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع»[10]، وهو في مناسبة فواتح السور لخواتمها، وأكثر معلومات كتاب تناسق الدرر من كتاب «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، لبرهان الدين البقاعي، ت885هـ، الذي ذكره السيوطي فقال: «ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سماه نظم الدرر..»[11].

---

(6) معترك الأقران للسيوطي، تحقيق أحمد شمس الدين ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ط أولى 1988ف 1/ 43.

(7) مفاتيح الغيب للرزاي ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ط أولى: (1411/ 1990): 23/ 61.

(8) البرهان للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ صيدا بيروت ـ المكتبة العصرية (1391/ 1972) 1/ 36.

(9) الإتقان للسيوطي: 2/ 138.

(10) م. ن: 2/ 138.

(11) م. ن: 2/ 138.

ومن المحدثين عبد الله الصديق الغماري صاحب كتاب: «جواهر البيان في تناسب سور القرآن»[12].

وقد اختلف العلماء في ترتيب سور القرآن أهو توقيفي بوحي، أم اجتهادي توفيقي من عمل الصحابة، بعد اتفاقهم على أن ترتيب الآيات بوحي سماوي، وليس استجابة للرأي؟ يقول ابن الزبير الغرناطي: «إن ترتيب الآيات في سورها وقع بتوقيفه ﷺ من غير خلاف في هذا بين المسلمين»[13]، وقال في ترتيب السور: «إن الأمر في ذلك كيفما قدّر، فلا بد من رعي التناسب، فإن كان بتوقيف منه ﷺ، فلا مجال للخصم.. وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، فقد أعمل الكل من الصحابة جهده، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه وفهمه»[14].

واستدل من رأى أن ترتيب السور بوحي بما رواه ابن أبي سكينة في مصنفه، عن سعيد بن خالد أن رسول الله ﷺ صلّى بالسبع الطوال في ركعة، وأنه عليه الصلاة والسلام، كان يجمع المفصل في ركعة»[15]، وبما رواه البخاري عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال في بني إسرائيل [الإسراء] والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «إنهن من العتاق، وهن من تلادي»[16]، ومن القائلين بهذا الرأي البيهقي من المحدثين، وأبو جعفر النحاس، وأبو بكر الأنباري من النحاة، والطيبي وابن الحصار من علماء القرآن[17].

وممن قال بأن ترتيب السور محصل بالاجتهاد، الإمام مالك، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وأحمد بن فارس، وحجتهم اختلاف الصحابة في ترتيب مصاحفهم، لأن منهم من كتب السور في المصحف على تاريخ النزول، فقدم

---

(12) جواهر البيان لعبد الله الصديق ـ مصر ـ مطبعة سيد عاطف وسيد طه، د.ت، ص16.

(13) البرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير، تحقيق محمد شعبان (1410/1990)المغرب، المحمدية ـ مكتبة فضالة ص182.

(14) م. ن: ص182.

(15) مصنف ابن أبي شيبة: 1/ 368.

(16) صحيح البخاري بحاشية السندي ـ كتاب التفسير ـ باب تأليف القرآن: 1/ 227.

(17) الفهرست لابن النديم ـ مصر، المطبعة الرحمانية. ص39.

المكي على المدني، ومنهم من جعل أوله سورة العلق[18].

والقول بأن الترتيب بين السور بأمر من الله أوثق وأوفق، لأنه يدعم تسلسل المقاصد بين السور وتآخي الأغراض، ويشهد له ما في أوائل السور وأواخرها من التآلف المحكم بينها، يقول السيوطي نقلاً عن الكواشي: «لما ختم سورة النساء، أمر بالتوحيد والعدل بين العباد أكد ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]»[19]، ونقل عن غيره قوله: «إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفي تارة، ويظهر أخرى، كاختتام سورة الأنعام بالحمد، فإنه مناسب لختام المائدة في فعل القضاء، كما قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: 75]، وكافتتاح سورة فاطر بالحمد لله، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ﴾ [سبأ: 54]، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 45]، وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح. فإنه مناسب لختام سورة الواقعة بالأمر به. وكافتتاح سورة البقرة بقوله: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، فإنه إشارة إلى الصراط في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]»[20]، وذلك من باب التناظر والتشابه في المعاني.

وقد تكون الصلة بين السور قائمة على معنى التقابل في المعاني، من أجل إبراز الشيء بضده، يقول السيوطي في مقابلة سورة الكوثر بالماعون: «لأن السابقة [الماعون] وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر فيها في مقابلة البخل: إنا أعطيناك الكوثر، أي: الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة: فصل، أي: دم عليها، وفي مقابلة الرياء: لربك، أي: لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون: وانْحَرْ، أراد به التصدق بلحم الأضاحي»[21].

---

(18) الإتقان: 2/ 142، والبرهان: ص256.

(19) الإتقان: 2/ 142.

(20) م. ن: 2/ 142.

(21) م. ن: 2/ 143.

وقد يكون المقصد العام للسورة مشابهاً لجملة السورة التي تليها، كما هو ملاحظ في علاقة الضحى بالانشراح، فهما في تسلية النبي ﷺ، وتذكيره بنعمة الله عليه، وكما في التشابه بين النساء والمائدة، لما بينهما من الاشتراك في جملة أحكام تنظم الأسرة والمجتمع.

وقد تكون العلاقة بالمقابلة بين أغراض السور، كما ورد المقصد لعام السورة «الكافرون» في مسالمة الكافرين بالملاينة والحيدة، وكانت سورة النصر إظهاراً للقوة والتأييد والتفوق على الكافرين، وكما في التقابل بين مقصد سورة التحريم، وسورة الطلاق، حيث جاءت الأولى في إحلال ما امتنع عنه النبي ﷺ بعداً عن مضايقة أزواجه، والثانية في إباحة فعل إيقاع الطلاق، وفيه من الإيذاء ما فيه، ومثل التقابل في الغرض بين سورة يوسف التي حكت قصة رسول صدّيق، وأمة مطيعة له، آخذة بأمره ونهيه، وسورة هود التي تحدثت عن مسالك الكافرين والمعاندين، الذين طغوا وعصوا الرسل.

وتساعد أسباب النزول على إدراك الصلات الخفية بين الآيات، كما هو الحال في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: 3]، حيث ربط السبب بين الجواب والشرط، ودفع توهم انقطاع المعنى بين الإقساط في اليتامى، والزواج بأكثر من واحدة، يقول محمد الطاهر بن عاشور: «فقد تخفى الملازمة بين الشرط وجزائه، فيبينها ما في الصحيح عن عائشة أن عروة بن الزبير، سألها عنها، فقالت: هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن»[22]، ويستعين السيوطي بسبب النزول في الربط بين أول الآية وآخرها من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189]، فيقول: «قد يقال: أي رابط بين أحكام الأهلة، وبين حكم إتيان البيوت؟ وأجيب بأنه من باب الاستطراد، لما ذكر أنها مواقيت

(22) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ـ تونس ـ الدار التونسية للنشر ـ 1984 1/ 50.

للحج، وكان هذا من أفعالهم في الحج، كما ثبت في سبب نزولها، ذكر معه من باب الزيادة في الجواب على ما في السؤال»[23].

وكثيراً ما يستعان بالسياق العام، وما يتفرع عنه من استطرادات في إدراك الصلة بين عبارات في آية أو آيات لا علاقة في ظاهر اللفظ بينها وبين سياقها ولحاقها، يقول ابن جزي محمد بن أحمد الغرناطي ت741هـ، في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60]: إنه حصر مصارف الزكاة في تلك الأصناف؛ ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بالآية التي سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ . . .﴾ [التوبة: 58][24].

وقد يثير معترض سؤالاً: لماذا لا تتناول كل سورة قرآنية موضوعاً واحداً، تساق كل آياته في معالجة قضية واحدة؟

ولكن حكمة الله اقتضت أن تتعدد الموضوعات في السورة الواحدة، وتتوحد في المقصد العام، لأن تنوع الموضوعات، ثم اجتماعها في أصول متلازمة متآلفة، خير من سوق الحديث في موضوع ضيق لا يستجيب لسعة القرآن وعمقه، كما أن الجمع بين تعدد الآيات وتوحد المقصد العام للسورة، يحقق الجمع بين الانتفاع بجزء الكلام التام المتمثل في عبارة أو آية، أو مجموع آيات، وبين الانتفاع بمجمله في السورة الواحدة، أو بين مجموعة من السور؛ لذلك فإن المفسرين المبرّزين في اللغة والبلاغة، اهتموا بإدراك الصلة بين أول السورة وآخرها، كما فعل أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي ت745هـ، الذي قال في عقد الصلة بين أول النساء وآخرها: «ختمت هذه السورة بهذه الآية، [يعني آية الكلالة] كما بدئت أولاً بأحكام الأموال في الإرث وغيره؛ ليشاكل المبدأ المقطع، وكثيراً ما وقع ذلك في السور»[25].

---

(23) الإتقان: 2/ 142.

(24) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الغرناطي ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي (1403/ 1983) ص256.

(25) البحر المحيط ـ لأبي حيان ـ الرياض ـ مكتبة النصر الحديثة: 3/ 406.

أما ابن عرفة محمد بن محمد الورغمي، ت803هـ، فإنه ينظر نظرة أوسع من ذلك، فقد جمع بين الآية ومثيلاتها في تتميم معانٍ جاءت جزئياتها موزعة بين السور، أو تتميم صور لم تنتظم في سياق واحد، كما فعل عند بيان قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: 10]، فيقول: «بهذه الآية، يقع الجمع بين قوله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: 20]، وبين قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: 32]، فشبهها بالثعبان في عظم جرمها، وبالحية، وإن كانت صغيرة الجسم في سرعة حركتها، فهو استعارة، أو يقال، إنها في أول حالها حية، ثم عظمت، وصارت ثعباناً»[26]، فاستقلال الآيات في معانيها الجزئية غير مخلٍ بالوحدة الجملية التي تجمع بين الآيات في السورة الواحدة، وبين الآيات الواردة في موضوع واحد، وإن كانت موزعة على سور متعددة، أحس بذلك بعض المستشرقين من مثل نورمان (Norman) فقال: «ليس للقرآن نظير في غير الدين الإسلامي، ولقد رأى فيه المسيحيون في بعض الأحيان نظيراً للكتاب المقدس، وجهلوا دائماً أن القرآن إنما يعبر عن ذاته، وكما جاء في أصله السماوي، حيث إنه لا يشبه، وبحق، أي شيء كان معروفاً لدى النصرانية»[27]. ويقول المستشرق فوك (Fuok): «لا يمكن تقسيم القرآن إلى شذرات، كلمة وسورة وآية، بحيث يصبح الكتاب، كأنه لوحة فسيفاء»[28]، وقال هارشفلد (Hirschfeld) صاحب كتاب بحوث جديدة في ترتيب القرآن وتفسيره: «ليس للقرآن مثيل في قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه»[29]، ولكن أكثر المستشرقين يهاجمون القرآن في وحدة معانيه ومتانة أسلوبه، فرأى نولدكه (Noldeke) أن القرآن ينقصه التسلسل في طريقة الإخبار، ويعيبه التكرار، وينتقل من صغية إلى

---

(26) تفسير ابن عرفة برواية الأبي، خ رقم 10770 ـ تونس ـ دار الكتاب الوطنية، ق9377.

(27) Norman.Daniell, Islam and the west, medindugh, 1980, P:33.

(28) المستشرقون والقرآن الكريم، لعمر العالم ـ مالطا ـ مركز دراسة العالم الإسلامي ـ ط أولى، 1991ف ص24.

(29) مجلة رسالة الإسلام، عبد الوهاب حموده، من زلات المستشرقين، العدد الرابع، السنة العاشرة، (1377/ 1958) ص271.

أخرى، ومن غيبة إلى خطاب، ومن ظاهر إلى مضمر وبالعكس»[30].

وادعى باريت بأنه لا توجد صلة بين ما أقسم عليه القرآن في أول بعض السور، وبين ما تضمنته من موضوعات، ويمثل لشبهته سوء تصوره لقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: 1 ـ 2]، وما بعدها، وقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: 1 ـ 2] وبين ما تحويه بعد هذا القسم من معانٍ[31].

ويصف لامانس (Lammens) القرآن في سوره المكية بأنه متفرق المعاني، متقطع الأنفاس، مما يؤدي إلى النقض في معنى الجملة الواحدة، بينما يصف السور المدنية بأنها تتضمن نظماً للتشريع، وجملتها القرآنية تشكل وحدة متكاملة، ويستشهد على ذلك بسورة الحجرات[32]، ولكن ما الرأي في السور المكية التي امتازت بطول الآيات ووضوح الصور، كما في سور الأنعام والأعراف وهود ويوسف.

والسبب في ذلك التجني راجع إلى جهل أولئك المستشرقين باللغة العربية، وبلاغة تراكيبها، مع تحامل بعضهم على الإسلام وكتابه الخالد، وإن كان يدرك إعجازه وتفوقه على بقية الكتب.

وإذا كانت الدراسات الأسلوبية الحديثة تميز الأسلوب الرفيع، بما يشع فيه من التأثير المعنوي المتآلف، والمتوافق مع الإيقاع الداخلي والخارجي للعبارة في انسجام، فإن القرآن أعظم نموذج لهذا التوحد المتناغم المنسجم، بحيث لا يمكن فصل أسلوبه عن إيقاعه، وقد تقرر أن «الإيقاع من الأسلوب»[33].

ولقد أذعن المشركون في عهد النبوة لهذه الوحدة المعنوية والفنية، التي

---

(30) الرسول في كتابات المستشرقين ـ لنذير حمدان ـ دار الأفغاني للطباعة، د.ت، ص108.

(31) مجلة منبر الإسلام، رمضان عبد التواب، المستشرقون والقرآن الكريم ـ العدد 2، السنة 30، صفر 1392هـ ص84.

(32) Lammens: l'islam Croyances et Institutions jmp- Cathotique, Beyrout 3w m, p. 62 1943.

(33) علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، لصلاح فضل ـ القاهرة، مؤسسة المختارة، 1992ف ص43.

لم يألفوها في شعرهم ولا في نثرهم، يقول السيد أحمد خليل: «سمعوا القرآن، ووجدوا فيه قيماً فنية من نوع آخر، لم يتح لهم أن يتصلوا بها، ومن هذه القيم ما يمس الصورة أو الإطار الفني الأدبي، ومنها ما يمس الفكرة، ومنها ما يتصل بالتصرف في اللغة... على نحو يجمع بين إثارة الوجدان والعقل جميعاً، سواء في ذلك كله الوحي المكي أو المدني، ومن هنا كانت الوحدة الفنية»[34].

وينظر بعض محللي النصوص المعاصرين إلى النص القرآني على أنه وحدة متضافرة متناغمة: «لأنه يهدف إلى غاية واحدة، وإن تنوعت مظاهر تعبيره، وينطلق من فلسفة منسجمة... لذلك يجب التسليم بأن الآيات التي تدور على قضية واحدة، وإن وجدت في مواطن متفرقة من المصحف، لها ثابت بنيوي تنطلق منه، لتفصله أو تكمله أو تبينه»[35].

ولقد حقق القرآن استجابة المتلقين لنصه، بتنوع مشاهده، وتوحد مقاصده، فصارت آياته وسوره مؤثرة عند تفرقها بما تصوره من معانٍ متعينة، وهي مؤثرة فوق ذلك كله عند اجتماعها بما تبسطه من تتمات لدوائر معنوية متصلة بالمقاصد العامة لهداية القرآن في العقيدة والشريعة والأخلاق، في امتزاج منسجم مع التعبيرات الأدبية السائدة في جميع العبارات، والإشارات العلمية المكتنزة في بعض الآيات، فالقرآن نور في وحدته، وفي تجزئته.

والأسلوب القرآني سلس في عمق، ومتصل في شمولية، ومؤثر في إقناع، تتحد فيه الفكرة بالشعور لدى المتلقي، يحول الكلمات إلى حركة، والنص إلى حياة، يقول الشاعر العالمي جوته (Goete): «فقد نفذ القرآن إلى قلوب سامعيه بكل قوة وإقناع، واجتث من ثناياها كل ما كان متأصلاً فيها من وحشية، وانتزع كل همجية، فأوجد ببلاغته وسلاسته أمة متمدينة من أمة متوحشة»[36].

---

(34) دراسات في القرآن للسيد أحمد خليل، بيروت ـ دار النهضة العربية ـ ط أولى 1969ف ص33.

(35) دينامية النص لمحمد مفتاح، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط ثانية، 1990ف ص192.

(36) مجلة رسالة الإسلام ـ العدد الرابع السنة العاشرة ص271.

وحسبك أن القارىء، وهو ينتقل من آية إلى آية، ومن سورة إلى سورة، لا يحس بانقطاع في المعنى، ولا باهتزاز في التناغم، وإن تنوعت المعاني، واختلفت المقاطع، وعلى الرغم من أن لكل سورة مقصدها المحدد، وإيقاعها المنفرد.

وإن المناداة بالمنهج الموضوعي في تفسير القرآن يجب ألا يكون على حساب انتظام الآيات القرآنية في سوره؛ لأن لهذا الترتيب دلالته الفنية المعبرة عن الوحدة المعنوية الجزئية، التي تتلائم مع تلك الوحدة الموضوعية بين الآيات الموزعة بين السور، وإن كان أمين الخولي قد دعا إلى اتباع تاريخ النزول في التفسير، وجمع الآيات المتفقة في موضوع واحد وتفسيرها[37]. فإن ذلك لا يكون مثمراً في التفسير إلا إذا كان في نطاق ترتيب المصحف للآيات، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، في ضوء نسقه المسطر في المصحف، وليس على ترتيب تاريخي أو ذهني، ولعل الرأي الأولى بالقبول في هذه القضية ما صرح به محمد باقر بقوله:

«فالمسألة ليست مسألة استبدال، وإنما هي مسألة ضم الاتجاه الموضوعي في التفسير إلى الاتجاه التجزيئي»[38].

ولا شك أننا عندما نضع التفسير الموضوعي في مرحلة تعقب التفسير القائم على التحليل لمعاني الآيات نكمل بذلك دوائر المعاني، ونوسِّع من مساحات المعاني، ونزيد في اقتباس إشعاعاتها الهادية المؤثرة، ألا ترى أن قصة موسى عليه السلام قد وردت في ثلاثين سورة من القرآن، موزعة المشاهد مختلفة السياقات والأغراض، محققة في كل مشهد لما سيقت من أجله كل سورة، ولكن الملحمة الإيمانية والخلقية والجمالية تبلغ تمامها، وتصل إلى أعلى مؤشراتها في المعاني والصور والتأثيرات الصوتية المتحدة، من مجموع

---

(37) التفسير لأمين الخولي، بيروت ـ دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ط أولى، 1982ف ص85.

(38) التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية لمحمد باقر ـ بيروت ـ الدار العالمية، ط أولى، (1409/ 1989) ص38.

تلك المشاهد التعبيرية الموزعة في تلك السور، ولكن ذلك يتحقق في قراءة متوافقة مع ترتيب المصحف، حتى لا تذهب الوحدة المعنوية والفنية، أوَليس النظر في ديوان شاعر على حسب الموضوعات مُذهباً لأثره الفني، مضعفاً لاتصال معانيه، ولكن احتساب تلك النظرة في ضوء قراءته قصيدة قصيدة، يجمع بين وحدته الموضوعية والفنية، فكيف بالقرآن الذي لا نعلم عن أسراره إلا القليل.

ولا ريب في أن خلود المعاني القرآنية سيجعل المشككين في موثوقيته يراجعون مقدماتهم ونتائجهم، وذلك تحت تأثير إيحاءاته، وروعة إيقاعاته، وإشعاع أسلوبه، ويحدث لهم ما حدث لبلاشير (Blachère) من قبل، الذي طأطأ رأسه لبلاغة القرآن وقال: «ولا يجب أبداً أن يغرب عن بالنا هذا الحدث الذي يتصل بما تحويه الشريعة الجديدة من الإجلال، عندما نحكم ميزة القرآن الجمالية، ثم إن لهذه الميزة تأثيراً حتى على السامع الذي لا ينطق بالضاد»[39].

إن هذا القرآن امتزج فيه الجمال بالهدى، واتحدت فيه الرغبة مع الرهبة، وتلاحم فيه الإقناع مع الإمتاع، واتصل فيه التصوير بالتأثير، ودل أوله على آخره، ولم تقصّر فيه أقصر سورة عن الإعجاز، ولا أقصر آية عن سمو التعبير، ولم تخرج فيه أطول سورة عن نظامه، ولا أطول آية عن مرامه، ولا غرو فهو الكتاب الذي عجز الثقلان عن محاكاته بمثله، وعن تحديه بأقصر سورة من نظمه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

(39) القرآن لبلاشير، ترجمة رضا سعادة، بيروت ـ دار الكتاب اللبناني، ط أولى 1974ف ص151.